المؤتمر العلمي الدولي الأول لكلية اللغة العربية بجرجا

(جرجا عبر التاريخ وجهود علمائها في خدمة العلوم الإنسانية)

١٤ - ١٥ شوال ١٤٤٦هـ / الموافق : ١٣ - ١٤ أبريل ٢٠٢٥م

مظاهر التقليد وملامح التجديد

في شعر الشيخ علي يوسف المؤيد ديوان " نسمة السحر " أنموذجاً

Manifestations of imitation and features of renewal In the poetry of Sheikh Ali Yusuf Al-Muayyad, the Diwan of the 'breath of magic' is a model

بقلم الأستاذ الدكتور

حنفي محمود مصطفى شطير

أستاذ الأدب والنقد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

بسوهاج، جامعة الأزهر ، جمهورية مصر العربية.

العدد الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

من خلال مطالعتي – على عجالة – ديوان نسمة السحر للشيخ علي يوسف المؤيد وجدته يسير على منوال قدامى الشعراء في الأغراض الشعرية وفي البناء الفني للقصيدة، علمًا بأنه يعد من شعراء الطور الثاني الذي بدأ بالنهضة الأدبية في عهد الخديوي إسماعيل، ومع ذلك فقد تضمن ديوانه بعض الأغراض الشعرية مثل: المدح والغزل والشعر الاجتماعي بجميع ألوانه والشعر الديني كمناجاته للمولى عز وجل وتوسله بآل بيت رسول الله ﷺ وبعض الأولياء الصالحين.

ولقد حظي فن المدح الكم الأكبر من قصائده وذلك لاهتمامه بمدح أصحاب المراتب العليا كالخديوي توفيق وغيره من أصحاب السعادة والباشوات، ثم جاء فن الغزل خاليًا من التبذل وإثارة الغرائز ومعبرًا عما يعانيه العاشق عند القرب والبعد أو عند الصد والهجر من لوعة الفراق وحرقة القلب وسقم الجسم وغير ذلك من آثار العشق والهوى، ثم تلا هذا الفن الشعر الاجتماعي وقد حظيت التهاني بعدد من القصائد غير قليل.

ثم ختمت هذا البحث المتواضع بملامح التجديد التي استنتجتها من بعض قصائده الشعرية الواردة بهذا الديوان .

هذا وبالله التوفيق.

تمهيد : التعريف بالشاعر

مولده ونشأته [١]:

ولد الشيخ علي يوسف المؤيد بقرية " بلصفورة " التابعة لمديرية جرجا آنذاك في عام ١٨٦٣ م، ثم توفي أبوه بعد عام من ولادته، ولعدم العائل من أهله أخذته أمه وذهبت إلى قريتها " بني عدي " التابعة لمركز منفلوط محافظة أسيوط حيث وجد العناية والرعاية هناك من قِبَل أخواله.

ثقافته:

بدأ الشيخ علي يوسف دراسته الدينية في كُتَّاب القرية على يد الشيخ حسين الهواري، فحفظ القرآن الكريم وهو في سن الثانية عشرة من عمره، ثم في عام ١٨٨١ م انتقل إلى القاهرة والتحق بالأزهر الشريف، وفي الأزهر درس العلوم الدينية والعربية كالفقه والحديث والتفسير والنحو والصرف والبلاغة وغيرها.

ثم اتجه إلى تثقيف نفسه بنفسه فقرأ كتبًا في التاريخ والأدب والشعر، ومع ذلك لم يتمكن من الحصول على الشهادة العالية.

وفي تلك الفترة نظم الشعر واستطاع أن ينشر ديوان شعر عنوانه " نسمة السحر " في عام ١٨٨٥ م، ثم بعد خروج هذا الديوان إلى النور هجر الشعر واتجه إلى الصحافة [٢]، فبلغ فيها شأوًا عظيمًا وكان له وللشيخ محمد عبده دور بارز في الحركة الفكرية وخاصة بعد أن أنشأ جريدة " المؤيد " عام ١٨٨٩ والتي جاءت معبرة عن آمال الأمة الإسلامية ولسانًا وطنيًّا صادقًا [٣]، ثم توفي – رحمه الله – في عام ١٩١٣ م، ودفن بالقاهرة .

---

(١) انظر ترجمته في: تاريخ آداب اللغة العربية – جورجي زيدان ٦١٥/٢، الأعلام للزركلي ٣٣/١ – طبع بيروت .

(٢) الشيخ علي يوسف تاريخ الحركة الوطنية في ربع قرن، سليمان صالح ص ١٨ – بدون طبعة.

(٣) تاريخ الأدب لعربي الحديث، أ . د/ محمد كامل وآخرين ص ٣٦ .

المبحث الأول : مظاهر التقليد في شعر الشيخ علي يوسف المؤيد

أولاً: المدح:

سار الشاعر علي يوسف في هذا الفن على منهج القدماء من حيث البناء الفني للقصيدة الذي تحقق من خلال الأوزان الخليلية ووحدة القافية والوحدة الموضوعية وكذلك من حيث الاستهلال بالحديث عن الرحلة تارة والغزل تارة أخرى ثم حُسْن الانتقال إلى الغرض الأصلي والذي من أجله أنشأ الشاعر قصيدته.

ولقد استحسن بعض النقاد القدماء هذا المنهج كابن قتيبة في قوله: " إن مقصد القصيد إنما ابتدأ بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكى وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلها الظاعنين عنها إذ كان نازلة العمد (١) في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم من ماء إلى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب لما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء، فإذا علم أنه استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير وانتقاء الراحلة والبعير فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل قرر عنده ما ناله من المكاره في المسير بدأ في المديح، فالشاعر المجيد من سلك هذه المسالك ... ولم يطل فيما يمل السامعين ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد " (٢).

كما تحدث ابن رشيق عن اتخاذ بعض الشعراء منهج القدماء فقال: " إن منهم من سلك في ذلك مسلك الشعراء اقتداء بهم واتباعًا لما ألفته طباع الناس منهم كما يذكر أحدهم الإبل ويصف المفارز على العادة المعتادة، ولعله لم يركب جملاً قط

---

(١) نازلة العمد: يعني بهم البدو النازلين في الخيام ونازلة المدر هم الحضر.

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة، تحقيق/ أحمد شاكر ٢٥/١، طبع دار المعارف .

ولا رأى ما وراء الجبانة ..." [١].

فابن رشيق يرى أن الشعراء يسلكون مسالك القدماء يقصدون بهذا المسلك الاقتداء بهم وكأن هذا المسلك طريقه في الشعر يبين الشاعر من خلاله – أثناء حديثه عن الرحلة – عن قوته ويدلل أيضًا على استحقاقه المكافأة من الممدوح سواء أكانت مادية أو معنوية، وكذلك استحقاق الممدوح كل هذه المتاعب والمشاق التي تكبدها المادح وراحلته في سبيل الوصول إليه.

نلحظ هذا في مستهل هذه القصيدة التي مدح بها الشاعر الخديو توفيق بقوله [٢]:

مطيـــة أمـــالي ثنيـــتُ عـــن الخلـــق ∴ وعطَّلـــت مســـراها عـــن الغـــرب والشـــرق

وشـــدَّدتُ في بيـــداء عـــزٍّ عِقَالهـــا ∴ وخلَّصْـــتها في الـــدهر مـــن وصـــمة الـــرق

ولمـــا دنـــوت الآن أبغـــي فكاكهـــا ∴ أبـــت تفتـــدي مـــن أســـرة القيـــد والطـــوق

وقالـــت وســـهم الـــرد منهـــا مفـــوَّقٌ ∴ إلى مـــن أجـــوب الحـــزْن والســـهل في الطُّـــرِق[٣]

فالشاعر ركب ناقته إلى الممدوح كما قال الناقد القديم ابن قتيبة، ولكنه خالف النظام التقليدي المعروف لقصيدة المدح في العصر الجاهلي، فهو لم يبدأ قصيدته بالوقوف على الديار ولم يصف الدمن والآثار ولم يظهر لوعته وحرقة قلبه على خلو هذه الديار من الأهل والأحباب ولكنه استهل قصيدته مرتحلاً بناقته التي تطوي الفيافي وتجوب ما سهل وما غلظ من الأرض فلا تعبأ بما تعانيه من متاعب ومشاق من أجل الوصول إلى الممدوح الذي حثها على المسير إليه بقوله [٤]:

---

(١) العمدى لابن رشيق، تحقيق الشيخ/ محمد محي الدين عبد الحميد ٢٢٥/١، طبع دار الرشاد. الجبانة: الصحراء. انظر: لسان العرب، مادة: جبن .

(٢) ديوان نسمة السحر للشيخ علي يوسف المؤيد ص ٣ .

(٣) ثنى عن الشيء: انصرف عنه، شد رحاله: تهيأ للسفر، العقال: الحبل الذي يعقل به البعير، مفوق: صنع للسهم فوقا ليرمي به.

(٤) ديوان نسمة السحر للشيخ علي يوسف المؤيد ص ٣ .

فقلـــت إلى دار العزيـــز فيممـــي ∴ فســـارت وهزتهـــا اريحيـــة الشـــوْق
وقالـــت نعـــم أطـــوي الفيـــافي لأنـــه ∴ لـــه همـــة عليـــاء تـــومض عـــن الـــبرق
فمـــا شـــئت أمّلـــه فمـــا الـــبرق خُلَّـــبٌ ∴ ومـــا برقـــه إلا المتـــوَّجُ بالصـــدق
فســـرنا وحـــادي الـــنُّجح يشـــدو أمامنـــا ∴ يهـــني بالمســـرى فأســـرعتُ كـــالبرق
ويحـدو لـك البشـرى فقـد يحمـد السُّـرى ∴ لأمثالـــه فالســـعد في طـــالع الوفـــق
وآلـــت مطيـــاتي وبـــرت يمينهـــا ∴ علـــى أنهـــا تمتـــاز في حلبـــة السَّـــبق
إلى أن بـــدا بـــرق الأمـــاني طالعًـــا ∴ شـــكمت لهـــا أنفًـــا ولا شـــكمة الرفـــق
وأحجمـت عـن مسـراي فارتـاع قلبهـا ∴ وأنَّـــت أنـــين البكـــر في شـــدة الطلـــق
وقالـــت عنـــد الفـــوز تـــثني أعـــنتي ∴ وقـــد عـــنَّ لـــي صـــبح الخـــديوي في الأفـــق
فقلـــت لهـــا مهـــلاً رويـــدًا فـــلا أرى ∴ مثـــولي لـــدى أعتـــاب ذي الملـــك مـــن حقـــي
فـــإني حـــديث الســـن والقـــدر أرتجـــي ∴ أقـــدم قـــبلاً شـــافِع المـــدح في رقِّ
ولكـــنني مهمـــا نظمـــت فمـــا الـــذي ∴ أقـــول ولـــو بالغـــت في حلبـــة الســـبق
وقـــد ســـابقتْ قبلـــي الميـــادين أهلُهـــا ∴ ثنـــاءً وقـــد جـــدت بـــه الســـنن الخلـــق [1]

ففي الأبيات السابقة تبدو لنا مظاهر التقليد في المقدمة من خلال ما اشـتملت عليه من ألفاظ مثل: مطية – بعقالها – بيداء – الحزن – السهل وغير ذلـك مـن الألفاظ والمعاني التي استوحاها الشاعر من القدماء كما تبدو لنا أيضًا مظاهر التقليد

(١) يممي: اقصدي، الأريحي: الواسع الخلق النشيط إلى المعروف يرتاح للندى، الهمة: العزم علـى القيام بمهام الأمور ومن الرجال السيد السخي الشجاع، ومض البرق: لمع ضياؤه، أمَّلـه: أمـل الشيء تدبره وأعاد النظر فيه، البرق الخُلَّب: الذي لا يعقبه مطر، الحادي: الـذي يحـدو للإبـل فيحثها على المسير، النحج: الفوز والظفر أو الاستفار أو ردود صوته، السـرى: السـير لـيلاً، آليت: أقسمت، الشكام: سير من جلد عطفه ورد بعضه على بعض، ثني صدره: طواه.

هنا فيما خلعه الشاعر على ممدوحه من صفات كوصفه بالعزيز ونسب العز إلى داره وبأنه صاحب همة علياء أي لديه القدرة على القيام بجميع الأمور مع عنايته واهتمامه بكل ما يوكل إليه ثم ربط الشاعر هذه الصفة بوميض البرق بجامع الوضوح والظهور وعموم الضياء والنفع، ولكن قد يكون هذا البرق خلب أي لا يعقبه مطر فحينئذ لا تكون هناك فائدة فيه، ولكن الممدوح بهمته وعزمه وجوده له سمة الشمول وعموم النفع كما أن صورة البرق ولمعانه مرتبطة بالبيئة القديمة وتردد بها بعض الشعراء القدماء مثل امرئ القيس في قوله(١):

أصاح ترى برقًا أريك وميضه ∴ كلمع اليدين في الحبي المكلل

وكذلك صورة حادي الإبل التي وردت في الأبيات السابقة صورة مستوحاة من البيئة العربية القديمة.

وفي تشبيهه لممدوحه بالبرق فهو لا يقصد بهذا التشبيه لمعان البرق في السماء وإنما وراء هذا الإيحاء ما يكمن في نفسه من خلع صفة الوضوح والظهور وضياء وجه الممدوح وعموم نفعه الذي لا يتحقق في البرق والخلب كما أن خطابه لناقته بالتمهل في المسير وعدم أحقيته في المثول على أعتاب الممدوح يكشف لنا عما أراده من هذا وهو إبراز مكانة الملك وهيبته والهالة التي تحيط به وغير ذلك من سمات الملوك التي تقف حائلاً بينه وبين من يريد الوصول إلى أعتابهم .

ومن قصائد المديح التي بدأها بالغزل قصيدته التي مدح بها صاحب السمو محمود بك صدقي فقال (٢):

يمم الركب نحو ربع الأماني ∴ واحذر الميل عن سبيل الأمان

وانح نحو الرياض عند مياهٍ ∴ طاب فيها الورود للظمآن

واقتطف زهر ورد خدٍّ بطاح ∴ رقَّ فيها ملاعب الغِزْلان

---

(١) ديوان امرئ القيس، تحقيق/ عبد الرحمن المصطاوي ص ١٧٤ – طبع بيروت .

(٢) ديوانه ص ١٧ .

وانظـــر المـــاء إذ يســـير بلطـــفٍ ∴ في وهـــاد الريـــاض كالوسْـــنان

يلـــثم الشـــوق مـــن غصـــون قُـــدود ∴ هائمًـــا بالقـــدود والأغصـــان

واصـــغ للـــوُرق فوقهـــا صـــادحات ∴ تطـــرب العاشـــقين بالألحـــان

والظـــبي بـــالعقول ثمـــتَ تلـــهو ∴ والمثـــاني تُـــدينُ أيـــدي الحســـان

فارتشـــف مـــن مزاجهـــا سلســـبيلا ∴ إذ تطـــوف الكـــؤوس بالولـــدان

وانتهـــز فرصـــة القصـــف واحْـــذر ∴ مـــن لحـــاظ الفتـــاة والفتيـــان [1]

استهل الشاعر قصيدته ببعض المظاهر التقليدية كالحديث عن الركب والاتجاه نحو ربع الأماني وكذلك وصفه لموضع اللهو والطرب والمرح حيث الحدائق الغناء بأشجارها وغصونها وأزهارها وورودها ومياهها الرقراقة التي تسير ببطء في منخفضات أرضها وكذلك الطيور التي تشدو بألحان تطرب العاشقين.

ثم جاءت الألوان البيانية تعبر عما أراده الشاعر في غزله كوصفه لورود المياه واقتطاف الزهر وملاعب الغزلان ولثم الشوق للأغصان والهيام بالقدود إلى غير ذلك من ملامح غزله غير المكشوف ثم أحسن الانتقال من هذه المقدمة إلى الغرض الأصلي بقوله:

وادعُ قلـــبي فعَلَّـــهُ بعـــدُ يســـلو ∴ خطَّـــة الغـــي والهـــوى والأغـــاني [2]

---

(١) أمَّ: قصد، الربع: مكان يقيم فيه المرء، انح: اتجه، البطاح: مكان متسع، رق: خف ولطف، ملاعب الغزلان: مسالكها، الوهاد: الأرض المنخفضة، الوسنان: من أخذه النعاس، الورق: الحمام، الظبي: جمع ظبي، المثاني: التكرار، المزاج: ما يمزج مع الشراب، القصف: اللهو والعبث، اللحظ: النظر بمؤخرة العين .

(٢) يسلو: ينسى وتطيب نفسه بعد فراقه، خطة: علامة أو الطريقة، يقفو: يتبع، لمبين: الواضح، التبيان: تأمل المعنى حتى وضوحه، اللبيب: اللُّب: العقل، الأريب: الدهاء والفطنة والتبصر بالأمور، رام: قصد، مكامن: ما توارى واستخفى، يماريه: بناظره ويجادله، السرى: السير ليلاً، شأوه: غايته، الانتجاع: هو الطلب وأصله طلب المطر، العفاة: طلاب المعروف، مول: قدم إليه ما يحتاج، طوارق: الحوادث.

واستفقه عساه يصحو ويقفو ∴ منهج الرشد والمُنى والأماني

حيث دار الأمير محمود صدقي ∴ ذي الذكاء المبين والتبيان

حكمة الله الحكيم الذي عن ∴ حكمة الله قد بدا للعيان

والطبيب اللبيب في كل فن ∴ والأديب الأريب في كل آنِ

شبَّ يهوى مدارك المجد طفلاً ∴ فارتقى عن نقائض الصبيان

وامتطى الرشد في علاه فنادته ∴ المعالي مشيرة بالبنان

ثم لم تغنه الأماني حتى ∴ رام يدري حقائق الأنْسانِ

بل وابدى مكامن الطب حتى ∴ قيل حاز الفُنون عنْ لقمانِ

فهو بقراط في الحقيقة لولا ∴ أنَّ بقراط دارسُ الجثمان

جلَّ قدراً وعزَّ وصفًا فأنَّى ∴ مدْحَه منْ مدارك الأذهان

هلْ يماريه في الذكاء مُمَارٍ ∴ بل ولوْ جَدَّ في السرى فهو وانِي

قل لمن رام شأْوَهُ في المعالي ∴ قِفْ فدون الوصول محضُ أماني

فانتجعْ منْ سما مجده غيثَ عزٍّ ∴ تُمْسِ غِبَّ انتجاعه خيرَ جاني

فهو كهف العُفاةِ كعْبةُ مجْدٍ ∴ بيتُ حجٍّ لكلِّ قاصٍ وَدَانِي

دَامَ ما دامَ يُرْتَجى خيرَ مولٍ ∴ لمْ تُرِعْهُ طوارِقُ الأزمانِ

فعندما أراد الشاعر أن يقصد دار ممدوحه حن قلبه أن يصحو ويفيق من غيه ويتبع طريق الرشد والصلاح حتى يحقق ما يتمناه عند وصوله دار الأمير محمود صدقي الذي نعته بالذكاء وبالبيان وبالطبيب واللبيب الذي يعقل في كل فن والأريب ذو الدهاء والفطنة، ثم جعل الشاعر للمجد مدارك شب الممدوح يرتقيها منذ طفولته، كما شبه الرشد بمطيه وحذف المشبه وأتى بلازم من لوازمه، وكذلك في المعالي التي شخص الشاعر وخلع عليها صفات الآدميين فراحت تنادي الممدوح وتشير إليه

بالبنان، كما راح يبحث في حقائق الإنسان حتى وقف على ما استخفى وتوارى من علم الطب حتى قيل عنه أنه لقمان وأبقراط، وبهذه العلوم جل قدرًا وعزًّا وبلغ شأوًا عظيمًا لا يستطيع أحد أن يماريه فيما وصل إليه.

وهنا يبدو لنا معالم التقليد فيما خلعه على الممدوح من بعض السمات مثل الذكاء – الطبيب – الأديب الأريب – المجد – المعالي – الانتجاع – وهو طلب المطر – الغيث أي الجود والكرم – ملجأ لطلاب المعروف – خير م يقدم للمحتاجين ما يحتاجون إليه، إلى غير ذلك من المعاني التي طرقها بعض الشعراء السابقين في قصيدة المدح .

وفي موضع آخر من مدائحه نجده يستهل قصيدة بالغرض الأصلي مباشرة وذلك في مدحه جناب الغازي أحمد مختار باشا بقوله [1]:

أقمتَ بندَ القنَا في دولةِ الأسَلِ ∴ فكنتَ جنداً على الأيام والدُّوَلِ [2]
وسُسْتَ دَهرَكَ حتى ذَلَّ مِقْوَدُهُ ∴ في كفِّ حزمك لا ينفكُّ ذَا وَجَلِ
وسالمتْكَ الليالي وهي باسمة ∴ فلم يغُرُّك منها بارقُ الجذَلِ
بل صُنْتَ نفسك عن غدْرٍ وعن دَخَلٍ ∴ فلم تخُفَّك عُقْبَى الغدْر والدخَلِ
وصُلْتَ بالرمح يوم الروس فانتثرَت ∴ منها الرؤس على الآكام والجبلِ
إذْ رُمتَ تمحو بظل السيف ذكرهمُ ∴ لولا المقادير لم ينجو من الذبلِ
وقد ابنتَ ضروباً للوغى سُبُلا ∴ بعد اندراس دروس الحرب في السُّبلِ
فبان كيف يصول الرمح ممتثلاً ∴ أمر الضراب وأضحى واضح المَثَلِ
وعادة السيف أنْ يزهو بجوهره ∴ وليس يعمل إلا في يديْ بطلِ

---

(١) ديوانه ص ٧٢ .

(٢) البند: العلم الكبير، القناة: الرمح الأجوف، جمع قنا، الأسل: الرماح، ساس الناس: تولى رياستهم وقيادتهم أو الأمور دبرها وقام بإصلاحها، القياد: ما تقاد به الدابة من خيل وغيره، الجذل: الفزع والقوة، الدخل: الغدر والخيانة، صال صولاً: سطا عليه ليظهره، الآكام: جمع أكمة وهو ما ارتفع من الأرض، الذبل: الرماح، الوغى: الحرب، درس: درس: ذهب وعفا، الدروس: مقدار من العلم.

وقد رقيت سماء المجد مكتسبًا ∴ وسْم الغَزاةِ وهذا غايةُ الأمل
حتى سما ذِكرُك السامي الذُّرَى طبَقًا ∴ فوق السماك وذكر الغير لم يَحُل

ففي الأبيات السابقة بعض الألفاظ والأساليب التي تكشف لنا عن مظاهر تقليده للقدماء مثل: قوله: أقمت بند الفنا، أي أقمته أعلامًا من الرماح في دولة الرماح، وهنا حقق عنصر التكافؤ بين الطرفين، وكذلك سياسته للدهر أي دبر أموره وقام بإصلاحها ومسالمة الليالي له وصيانة نفسه عن الغدر والخيانة وسطوته على عدوه ليقهره فتطايرت رؤوسهم على قمم الجبال، ليس هذا فحسب بل نعته بأنه لا يسطو برمحه محققًا ضرابه، وكذلك استخدامه للسيف الذي أبرز بطولته وشجاعته ثم مدحه بما ارتقى إليه من ذرا المجد لابسًا تاج الغزاة، فسما بذكره السامي وعلا كما يعلو السما كان، أما غيره فظل على حاله لم يعتريه تغيير ولا تبديل.

ومن مدائحه التي وردت بديوانه مدحه لعبد الرحيم بيك حمادي، وقدم لمدحته بقوله: وقد كنت من منشائي ألزم إليه من اللفظ إلى معناه والطير إلى مغناه وقد كنت حضرت بمصر ولكن الأقدار قد قضت بأوبته يوم حضوري فقلت على نمط محاورة بيني وبين مصر [1]:

عَلامَ يا مصرُ في عزٍّ وفي تيه ∴ وأي فخر أراك اليوم حُزتيه [2]
أراك يا مصر تختالين مُعجَبَةً ∴ فهل بقُطرك قَطْر العز تجريه
أو طالبُ العزِّ قد نادته فرصته ∴ أو طالبُ المجد قد واقته أمانيه
يا مصرُ ما زال مني القلب مضطربًا ∴ من وصف بهجة ما العينان ترويه
يا مصر منا فقد طال السؤال فما ∴ قد حان يا مصر منَّا أنْ تجيبيه

(١) ديوانه ص ٣٨ .

(٢) تاه تيهًا: تكبر، تختال: تتزين وتتكبر، شغفه الحب: أصاب قلبه وأولعه، ولج في الأمر: تمادى، عفا: زال والريح محنه، عفا الشعر: أبقاه، وهن: ضعف.

قالتْ فدعني فإنِّي ليس يعجبني ∴ شخص يردِّد فيما ليس يعنيه

يا مصر قد قيل يحلو الرشْف من وشل ∴ للمرء إن لم يجد بحرًا يُوافيه

قالت فعني خذ ما كان من خيري ∴ ودع من الأمر عافيه وواهيه

ففي هذه القصيدة يشخص مصر وخلع عليها صفات الآدميين وراح يحاورها ويناديها بهذا النداء الذي أردفه بالاستفهام الذي قصد به التعجب مما تراه عيناه على شخصية مصر من عز وتكبر وفخر وخيلاء وراح يسألها عن أسباب كل هذا وذاك ويلح في السؤال بأن تمن عليه بالإجابة والعطف على قلب شغوف ومولع بحب الأشياء فأجابته بأن يدعها عما يسأل ويأخذ ما هو كائن من خيرها ويدع ما زال وما بقي وما وهن من الأمور التي شغل نفسه بها، ثم انتقل إلى مدح صاحب السعادة عبد الرحيم بيه حمادي اثناء زيارته إلى بلده بلصفورة، فقال:

والغيث زار بلا وعد تقدمه ∴ والأمس ساعد والأوقات ترويه [1]

واخضرَّت الأرض من جلباب زينتها ∴ إذ حلَّ رب الندا فيها ووافيه

عبد الرحيم الذي باهت به شرفًا ∴ شُمّ الكرام وسيف الحق واقيه

تراه في سلك عقد المجد جوهرة ∴ منها الأماجد قد باهت بتمويه

فقلت يا مصر والأحشاء ذائبة ∴ بالله آية فذا للصب شافيه

قالت فمالك هذا ذا أنت تعرفه ∴ فقلت هذا الذي في الدهر أعنيه

(١) الغيث: المطر أو الخاص منه بالخير، ويطلق مجازًا على السماء والسحاب والكلأ. انظر: المعجم الوجيز، مادة غيث، الجلباب: الثوب المشتمل على الجسد، باهت: بهته الشيء: دهشه وحيره، والصدب: العاشق، العجب: روعة تأخذ الإنسان عند استعظام الشيء، أذابه الهم: أضناه، الصب: الرقة والاشتياق، النادي: المجلس، خدم فلان فلانًا: قام بحاجته، اللوح: كل صفحة يكتب عليها من خشب أو نحوه، صفحة الشيء: وجهه وجانبه، البيض: السيوف، سورته: السورة الوثبة من البرد والشراب أو الغضب وغيره، ومن السلطان: سطوته.

قالت فوالله ذي أعجوبة ظهرت ∴ فذاك في الأفق بدر عز دانيه

فقلت يا مصر كم سامرت طلعته ∴ وطالما كنت في النادي أناجيه

قالت فصفه فقلت الوصف يعجزني ∴ قالت فحدث وكرر بعض ما فيه

فقلت هذا له الأيام خادمة ∴ قالت فكيف فقلت الله مُعليه

قالت فهذا له سعد فقلت له ∴ قالت فمالٌ فقلت الجود يُربيه

قالت فحلم فقلت الحلمُ شيمته ∴ قالت فعلم فقلت اللوح قاريه

قالت ففهم فقلت الغيث سطَّره ∴ في صفحتيه ومهما اختار يبديه

قالت فعزم فقلت البيض تحسده ∴ قالت فحزم فقلت العقل يهديه

قالت فحمد فقلت الحمد سورته ∴ قالت فمدح فقلت المدح يبغيه

أراد الشاعر أن يخلع صفة الكرم والجود وكثرة السخاء على ممدوحه الذي عم خيره على أهل بلدته كما عم الغيث الأرض فاخضرت وازينت بنباتاتها وأشجارها وثمارها وأزهارها، ومن خلال الحوار الذي أداره بينه وبين مصر راح يسرد العديد من صفات المدح كعلو شرفه ومجده الذي استمده من أروقة قومه وافتخار مصر بشخصيته وكأنه في افقها بدر مضيء يعز من يدانيه هذا بجانب إحساس الشاعر ببهاء طلعته وجمال جلسته ومحادثته وسعود طالعه وكثرة أمواله التي تزداد يومًا بعد يوم على الرغم من كثرة جوده وكذلك حلمه ومبلغ علمه وقوة عزيمته وشدة حزمه إلى غير ذلك من الشمائل التي خلعها على ممدوحه في الأبيات السابقة.

وكما أن حظه العاثر لم يمكنه من اللقاء بممدوحه في مصر فكذلك حال بينه وبين اللقاء به في بلدته وذلك لأن الشاعر أراد اللحاق به لكي يحظى برؤيته ويحقق ما يبغيه من لقيته وجده قد عاد إلى مصر مرة أخرى، فأنشد هذه القصيدة التي بدأها

بقوله (١):

أخِـــلاي مـــن أمـــر الزمـــان تعجبـــوا ∴ فللـــدهر والأيـــام فينـــا تقلُّـــب (٢)

قضـــى الله أن أهـــوى هُمامًـــا محببًـــا ∴ لمـــا أنـــه ســـامي الخصـــال مُهـــذَّب

وفـــت فيـــه أخـــلاق الأماجـــد قبلـــه ∴ فمـــا فاتـــه وصـــف إلى المجـــد ينســـبُ

تُنـــادي وفـــود المـــن آيـــاتُ جـــوده ∴ هلمُّـــوا إلى غيثـــي فمـــا الـــبرق خُلَّـــبُ

ســـقاه لبـــان المجـــد مهـــد جـــدوده ∴ فشـــبَّ علـــى أطـــوارهم يتقلـــبُ

وبـــادر للآمـــال قبـــل فطامـــه ∴ فلـــم يســـتبقه غـــيره وهـــو أشـــيب

وســـارع للعليـــاء في حجـــر حجـــره ∴ فمـــا خـــاب مســـعاه ومـــا عـــز مطلـــبُ

فمـــن ذاك دون النـــاس طفـــلا علقتـــه ∴ وهمـــتُ ومـــا أدري بـــأني أشـــعبُ

وثقـــت بـأيـــامي وخِلـــت بهـــا الوفـــا ∴ ولكنهـــا ترضـــي علـــيَّ وتغضـــبُ

فطـــورًا تنـــاجيني سُـــعودي بقربـــه ∴ فـــأطربُ حتـــى مـــا علـــى الأرض يطـــربُ

وطـــورًا تجـــافيني فأنـــدب مطلـــبي ∴ وكـــدت علـــى أيـــام قربـــي أنـــدبُ

يناشد الشاعر أصدقاءه المقربين إليه أن يشاركوه التعجب مما تفعلـــه الأيـــام والأزمنة به من تقلبات وأحداث حالت بينه وبين القرب من ممدوحه الذي شغف به بقضاء الله وقدره وذلك لما اتصف به من سمات طيبة كسمو أخلاقه وكمالها التـــي ورثها من الأماجد قبله ثم أبرز كرمه وكثرة سخائه بهذه الصورة التي شخص فيها

---

(١) ديوانه ص ٤٠ – ٤١ .

(٢) الخل: الصديق المخلص، الهمام من الرجال: السيد الشجاع، الماجد: ذا مجـــد وشـــرف، البـــرق الخلب: الذي لا يعقبه مطر، المهد: الفراش، ومن الأمر: وطأه وسهله، علق الشـــي: لازم قلبـــه، أشيب: قد تكون من الشعوبية وهي شدة ميله وحبه للمدوح، سعودي: سعود النجـــوم وهـــي عـــدة كواكب يقال لكل منها سعْد كذا ومنها سعد السعود وهو أحدها، ندب إلى الأمر: دعاه.

المن وجعل له وفودًا تنادي المحتاجين وتحثهم على الإقبال على غيث عطائه ثم يبدو لنا مبالغته في مديحه من خلال هذه المعاني التي وردت في بعض أبياته مثل: سقاه لبان المجد مهد جدوده – وتطلعه للآمال قبل فطامه– ومسارعته للعلياء في حجر حجره – وتعلقه بها وهو ما زال طفلاً، غلى غير ذلك من معاني المديح التي أراد من خلالها كسب رضا الممدوح واستدرار عطفه حتى ولو كانت الأيام ترضى عنه تارة وتغضب عليه تارة أخرى أو تطالعه نجوم السعد فتملأ نفسه فرحًا وطربًا حينًا أو تجافيه فيندب حظه حينًا آخر.

وهنا تبدو لنا مظاهر التقليد بداية من المطلع بمناشدة الأخلاء الذي تردد كثيرًا في شعر القدماء وكذلك ما خلعه على الممدوح من خصال كعلو أخلاقه وكثرة جوده وسخائه وشجاعته ومجده وشرفه وغير ذلك من الصفات التي ورثها عن آبائه وأجداده، كما أن مفردات صورته التي عبر بها عن جوده كالمن والغيث والبرق الخلب الذي لا يعقبه مطر، كل هذا يعد من مكونات الصور القديمة التي عبر بها بعض الشعراء عن الجود والكرم من قبله.

وفي موضع آخر يؤثر صاحب العزة عبد الرحيم حمادي بهذين البيتين الذين يكشفان لنا عن شدة تلهفه على اللقاء بممدوحه لكي يطفئ لهيب وجده ويوقف نزيف قلبه ويحقق آماله التي يرجوها عند اللقاء به فيقول [1]:

لعلَّ الدهر يمنحني بقربٍ ∴ فيبردُ لاعج القلب الكليم

وأبلغُ منه ما أبغي وأحظى ∴ بطلعة سيدي عبد الرحيم

ولقد قيل: إن مدح العظماء وأصحاب النفوذ كان سمة العصر حينذاك فلا ضير على بعض الشعراء من أن يصوغ القصيدة في مدح عظيم [2]، وعظيمين كهذين الأخوين همام بيك حمادي وعبد الرحيم بيك حمادي، ولعل هذين البيتين

(١) ديوانه ص ٢٣ .

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم في الماضي، عباس العقاد ص ١٨ – طبع نهضة مصر .

يفصحان لنا عن بعض الدوافع التي دفعت الشيخ علي يوسف على إطرائه ومبالغته أحياناً في مديحهما وخاصة صاحب العزة عبد الرحيم حمادي الذي أضناه الهم بسبب بعده عنه واشتعل لهيب النار في قلبه بسبب عدم قربه منه، كل هذا وذاك من أجل تحقيق رغائب نفسه وما يبغيه من آمال وطموحات قد تتحقق بمساندة ومساعدة هذين الرجلين وخاصة أن الشاعر ينتمي من حيث الموطن إلى بلدتهما وهو أكثر الناس علمًا بمكانتهما الاجتماعية والمادية، فقد كانا حينذاك من أهل الثراء والجاه والسلطان فلم يجد الشاعر وسيلة لكسب عطفهما ومساندتهما له إلا بهذه القصائد التي صب فيها درر مديحه عليهما، وسرعان ما تحقق للشيخ علي يوسف المؤيد ما تهفو إليه نفسه حتى أصبح بقدراته العلمية والثقافية وخاصة في مجال الصحافة المصرية أن يتحول إلى شخصية المحتاج إلى شخصية المحتاج إليه، وذلك من خلال مصاحبته وملازمته لكبار العلماء في عصره وكذلك مجالسته للأمراء والعظماء بصفة عامة وللخديو عباس بصفة خاصة .

ثانيًا: الغزل:

تبدو لنا مظاهر تقليده في هذا الفن من خلال استخدامه بعض المعاني التي تداولها بعض الشعراء القدماء مثل اختلاس النظر من فتاة ترقب زهرة الياسمين وتشبيه عيونها بعيون المها لاتساعها مع شدة البياض مع شدة السواد ثم ما جنته عليه هذه النظرة بعد الفراق من متاعب وآلام جعلته يستغيث بمن يخفف عنه ما ألمّ به وإذ بمن له خبرة فيما يفعله العشق بالمعشوق يقرر أن ما ألمّ به نتيجة نظرة من ظبية وأن حالته هذه هي حالة العاشقين، عبر عن هذا بقوله [١]:

خالستني نظرة من عينِ عينٌ ∴ في رياض الأنس ترعى الياسمينْ [٢]

---

(١) ديوانه ص ٢٠ .

(٢) المخالسة هو الاختلاس وهو أخذ الشيء سرقه – العين بالكسر واسعات الأعين، ومنه الحور العين، رنا: نظر، أهدر دمه: أباحه، البرين: الخلخال.

قـــد رمـــاني لحظهـــا لمـــا رنـــا ∴ يجتلـــي بالكســـر قلـــب النـــاظرينْ

غـــادرتني مـــن جفـــوني ســـائلاً ∴ ســـائلاً هـــل منصـــف لـــي أو معـــين

لا ترانـــي عـــين مَـــنْ ناشـــدتهم ∴ جيرتـــي مـــنهم فحـــاروا معجـــبينْ

غـــادروني ثـــم قـــالوا أيـــن ذا ∴ أيـــن ذا المهـــدور عهـــداً والطَّعـــينْ

أيـــن مـــن ينشـــدنا جيرتـــه ∴ نحـــن مـــن نـاديتنـــا في كـــل حـــين

قـــال مـــنهم قائـــلٌ يـــدري الهـــوى ∴ هـــذه خلســـات ربَّـــات الـــبرينْ

هـــذه حالـــة مطعـــون الظِّبَـــى ∴ هـــذه والله حـــالُ العاشـــقينْ

وللشوق آثار حسية ومعنوية على العاشق نلحظها في قصيدة أخرى استهلها الشاعر بما المَّ به من شدة شوقه لمن فارقته وأورثه الشوق والحنين إليها حرقة القلب ولهيب الوجد وذرف الدموع وعذل العاذلين إلى غير ذلك من المتاعب والآلام التي ذكرها ابن الجوزي في قوله: " قال الربعي: سمعت أعرابية تقول: مسكين العاشق كل شيء عدوه هبوب الرياح يقلقه ولمعان البرق يؤرقه ورسوم الديار تحرقه والعذل يؤلمه والتذكر يسقمه والبعد ينحله والقرب يهيجه والليل يضاعف بلاه والرقاد يهرب منه، ولقد تداويت بالقرب والبعد فلم ينجح فيه دواء"(١)، وفي هذه المعاني يقول الشيخ علي يوسف (٢):

إلى م الشـــوق يلعـــب في فـــؤادي ∴ ويرمـــي مهجـــتي بـــأحر واد (٣)

ويعبـــث بالضـــلوع شـــواظ وجـــد ∴ فيقـــدح في الحشـــا قـــدح الزنـــاد

(١) ذم الهوى لابن الجوزي، تحقيق/ مصطفى عبد الواحد ص ٢٥٣ – طبع دار الكتب الإسلامية.

(٢) ديوانه ص ٤٦ .

(٣) المهجة: القلب، الشواظ: اللهيب بدون دخان، الحشا: البطن وما وعى، الزناد: حجر يقدح بحجر ويستخدم في إشعال النار .

ويمـــنعني الغـــرام طـــروق طيـــف ∴ إذا وافـــى يُروِّعـــه سُـــهادي

وتـــذرف أدمعـــي بســـحاب مـــاءٍ ∴ يعـــارض لجَّـــة السُّـــحُب الغَـــوادِي

وتعـــذلني اللحـــاة ولا شـــفوق ∴ يـــرقُّ لحـــالتي بـــين العبـــاد

وتـــأبى همتـــى ذُلِّـــي ولكـــنْ ∴ قضـــى حكـــم القضـــا دون المـــراد

فيـــا ويـــح المُحِـــب إذا توالـــتْ ∴ علـــى أحشـــائه المحَـــنُ العـــوادِي

وبهذا فقد استرفد الشيخ علي يوسف ألفاظه ومعانيه في هذا الفن من الشعراء السابقين الذين استهوتهم معالم البيئة القديمة وما يحدث بين ربوعها مـن قصـص العشق وما يعتري العاشق من تحول وسقم ودموع وسهر وسهد وغير ذلـك مـن علامات الحب التي لمسناها في الأبيات السابقة.

ثالثًا: الشعر الاجتماعي:

أ- التهنئة:

حظى هذا اللون من الشعر الاجتماعي بعدد من القصائد التي اتخذها الشاعر كوسيلة للتعبير عن تهنئته لأصحاب السمو والباشوات وذلك عند حصـولهم علـى بعض الرتب العليا التي كانت تمنح لهم حينذاك كما جاءت بعض قصائده معبرة عن تهنئته بقدوم مولود أو تهنئة بحلول عيد الفطر أو بحلول عيد الأضحى إلى عير ذلك من المناسبات والتي كانت منها تهنئته لصاحب السعادة عبد الرحيم بيك حمـادي، وذلك لنواله إحدى الرتب العالية فهنأه بقوله [1]:

أريـــد اليـــوم أن ارقـــى السِّـــماكا ∴ وأجتلـــبُ المجـــرة لـــي شـــباكا [2]

(١) ديوانه ص ٤٣ .

(٢) السماكان: نجمان نيران أحدهما في الشمال وهو السمال الرمح والآخر في الجنوب وهو السمال الأعزل، اجتلب الشيء ساقه من موضع إلى موضع، المجرة: مجموعة كبيرة من النجوم تركزت حتى صارت ترى من الأرض كوشاح أبيض يعبر من السماء، الشبكة: حبالة الصائد في، الزهرة: أحد كواكـب المجموعـة الشمسية وهو ثاني كوكب في البعد عن الشمس، يقع بين عطارد والأرض وهو ألمـع كوكـب سـماوي باستثناء الشمس والقمر، الثريا: مجموعة من النجوم في صورة الثور، نهب الشيء أخذه قهـرًا. انظـر: المعجم الوجيز، كل على حسب مادته – طبع دار صادر– التحرير للطبع والنشر.

لأجعلـــها حبائـــل عنـــد صـــيدي ∴ نجـــوم الزهـــر لا تبغـــي فِكاكـــا

وأنْ أسمـــو علـــى ظهـــر الثريـــا ∴ لأنتهـــب الكواكـــب بعـــد ذاكـــا

فمقدمة القصيدة تعبر عن فرحة الشاعر وسعادته التي لا تماثلها سعادة إثـر علمه بما حظي به صاحب السعادة وبما ناله من رتبة زادته علوًّا على علوّه، وكما يقول إنسان عندما يفاجئ بخبر يسعده – لقد كدت أطير من شدة الفرحة – فكـذلك الشاعر الشيخ علي يوسف تمنى أن يكون له جناحان يطير بهما في الفق الكـوني حتى يصل إلى بعض الكواكب والنجوم ويمنحها هدية لمن بشره بهذا النبأ العظـيم فقال:

وأمنحهـــا لمـــن وافـــى بشـــيرا ∴ بنيلـــك أيهـــا السَّـــامي مُناكـــا

مراتـــبَ قـــد سمـــت قـــدرًا وعـــزًّا ∴ مقامًـــا حينمـــا وافـــت حماكـــا

فيـــا عبـــد الـــرحيم إليـــك تُنْهـــى ∴ رســـوم المجـــد لا تبغـــي ســـواكا

فـــدُم في غبطـــةٍ واهنـــأ بمـــا قـــد ∴ حظيـــتَ بـــه وســـرّ بمـــا أتاكـــا

فليســـت هـــذه واقتـــك إلاَّ ∴ أمـــاراتٍ تـــدل علـــى عُلاكـــا

وبعد أن منح مبشره هذه النجوم أردف هذا بمدح صاحب السـعادة وسـماه باسمه الحقيقي وهنأه بما حظي به من منزلة عالية ومكان رفيع ومجد تتطلع إليـه كل الأنظار، مجد رفرفت راياته، وحمدٍ تُليت آياته إلى غير ذلك من الشمائل التـي أودعها الشاعر في أبياته التالية فقال:

فكـــم نشـــرت بكـــم رايـــات مجـــد ∴ وكـــم ســـطعت مطالعهـــا هُناكـــا

وكـــم تليـــت لكـــم آيـــات حمـــدٍ ∴ تنبـــئ أنكـــم أولى بـــذاكا

لـــذلك قـــد ســـعت رتـــب المعـــالي ∴ إليـــك تـــود تمنحهـــا سَـــناكا

فزدهـــا رفعـــة بعـــلاك واقبـــل ∴ هديـــة مُنْـــتَمٍ يتلـــو ثناكـــا

ويجلـــوا مـــدحك الســـامي فيزهـــو ∴ كمـــا يزهـــو العـــديم إذا وفاكـــا

ويتلـــو منـــه آيـــات فتـــأتي ∴ كآيـــات ترتـــل مـــن نـــداكا

ويـــنظم منـــه في جيـــد المعـــالي ∴ عقـــوداً دون مـــا نظمـــت يـــداكا

أتـــت تختـــال في حلـــل التهـــاني ∴ يعطـــر نـــدّها الغـــالي شـــذاكا

تقـــول لـــديك قـــرًّا المجـــد بشـــرى ∴ وفي تاريخـــه فخـــر أتاكـــا

ولو تأملنا الشمائل التي ذكرها الشاعر في البيات السابقة نجدها تتسم بسمة التفرد لصاحب السمو فحسب كقوله: يا عبد الرحيم – تنهي إليك رسوم المجد– ليس كل من حاز مثلك – ولا كل من علا مجدًا وصل إلى ما وصلت إليه " وقد وطئت السماكان" ثم أتى بكم الدالة على الكثرة رايات المجد وآيات الحمد، ثم تأمل عبارة " واقبل هدية منتمٍ" وهذا إيحاء من الشاعر للمتلقي بأن الشاعر وصاحب السعادة من بلدة واحدة وهي قرية بلصفورة، فالانتماء هنا انتماء موطن، ولعل هذا كان سببًا فيما أتت به هذه القصيدة من شمائل يستحقها صاحب السمو عبد الرحيم حمادي .

وفي مجال التهنئة أيضًا يهنئ تهنئة عيدية لصاحب السعادة همام بيك حمادي مأمور مأمورية جرجا فيقول [1]:

هـــبني المســـامع في ترديـــد إنشـــادي ∴ شـــعرًا يـــرنح صـــوت المطـــرب الشـــادي[2]

مـــن أنـــت ذو المجـــد والعـــز الـــذي شـــرفت ∴ عنـــه الأماجـــد مـــن أبنـــاء حمـــادي

(١) ديوانه ص ٣١ .

(٢) رنح: تمايل، الشادي: الذي يغني ويترنم، الأماجد: رجال اتصفوا بالمجد، آليت: أقسمت، آل جهدًا: لم أقصر، أبراد: غنيمة تنال بغير تعب، صال صولة: سطا عليه ليقهره، رمت: قصدت، الليث: الأسد، أخنت: أهلكت، الطود: الجبل العظيم، النادي: الاجتماع، السند: العماد، مرتقيا: في علو وارتقاء، السماك: نجمان، وبلغ السماك: بلغ مرتبة عالية، سنا: ارتفع وعلا.

آليـــتُ لم آلُ جهـــدًا الفكـــر مشـــتغلاً ∴ بالمـدح مـا عشـت في الـدنيا أخـا زاد

مـــا دمـــتُ أمـــدح فالأيـــام تُســـعدني ∴ فهـل تـرى الـنفس لا تسـعى لإسـعاد

با لمجـد وا لمجـدُ عنـد الحـق لـي قسـم ∴ أنَّ المعـــالي فيـــه طـــيُّ أبـــرادِ

يـــا مـــن بهمتـــه ذو الهـــم أصـــبح في ∴ أمـن فـلا يخشـى بعـدًا صـولة العـادي

كـــم رمـــت مـــدحك والأيـــام تُقعـــدني ∴ عمـــا أردت وشـــأن الـــدهر إقعـــادي

حتـــى أمِنَـــتْ بعـــزمٍ منـــك ســـطوتها ∴ وهمـــة الليـــث كـــم أخنـــت بـــأطواد

مُـذْ صُـغت فيـك عقـود الـدهر تهنئـة ∴ وفـــزتُ منـــكَ بقـــرب الـــودِّ والنـــادي

أقـــول فيـــك وصـــدْق القـــول لـــي ســـندٌ ∴ وأصـــدقُ القـــولِ مـــا يُـــرى بإســـناد

فالشاعر يبدأ قصيدته بدعوة سامعيه بأن يهيئوا مسامعهم لسماع مدحـــه فـــي همام بيك حمادي مأمور مأمورية جرجا حينذاك.

وكعادته في مدحته لآل حمادي نجده يركز على عنصر المجد وأن هذا المجد استمده الممدوح من سلالة قومه أي أنه مجد تليد، ثم مدحه بعلو الهمة وأنه كالأسد الجسور فشجاعته وقوة عزيمته جعلته لا يخشى سطوة الأيام ولا الأعداء ثم أخـذ العهد على نفسه بألا يفتر عن مديحه، ففي مديحه والثناء عليـه يشـعر بالسـعادة والأريحية في نفسه وخاصة أنه دائمًا يحظى بوده وبقربه، ثم استمر في الثناء عليه والدعاء له بقوله:

دامـــت عـــلاك وحـــزتَ المجـــد مُرتقيًـــا ∴ أوْجَ السِّـــماك سَـــنًا عـــن رغـــم حسَّـــاد [1]

يســـتامك المجـــد كـــي يســـمو لأنـــك مِـــنْ ∴ سُـــلالة المجـــد بـــل مِـــن خـــير أمجـــاد

(١) يستامك: يسومك أي أرادك، دان: خضع وذل أو أقرضه، غلة: شدة العطش، الصـــادي الشـــديد العطش، الغادي: المطر، يدنسه: يعيبه، شام السحاب: نظر إليه أو تطلع إليـــه مرتقبًـــا، الـــورد: النصيب من القرآن، الغور: المنخفض من الأرض، النجد: ما ارتفع منها، تاقت: اشتاقت، المـــدد: الغوث، الراد: وقت الضحا، الحادي: حادي الإبل، الدل: التيه والعجب.

مـــولاي أنـــت الـــذي دِنْـــت الـــوَرى كرمًـــا ∴ تُـــولي الجميـــل وتـــروي غُلَّـــة الصَّـــادي

الله أكـــــبر إن وافيـــــتَ مُمتـــــدحًا ∴ حـــدث عـــن البحـــر أو حـــدث عـــن الغـــادي

مـــبرء العـــرض مـــن عيـــب يدنســـه ∴ مُطهَّـــر القلـــب مـــن مكـــرٍ وأحقـــادِ

والله لـــو شـــام فكـــري فُرصـــة زمنًـــا ∴ صـــيَّرت مـــدحك لـــي مـــن خـــير أورادي

ربَّيْتُمـــوا لـــي طفـــل المجـــد في صـــغر ∴ وصـــنتموا لـــي قـــدرًا دون أنـــدادي

مـــالي وللغـــير لا أســـلوكموا أبـــدًا ∴ بـــل أنـــتمُ القصـــد في غـــوري وإنجـــادي

أوثقـــتُ نفســـي بحبـــل الـــودِّ حافظـــهً ∴ في الحـــالتين لـــدى قربـــي وإبعـــادي

لا صـــاغ فكـــري عقـــود الـــدُّرِّ في زمـــنٍ ∴ إن لم يكـــن فيكمـــو فكـــري واجهـــادي

يـــا بيـــك هـــذي تهـــاني العيـــد مُقبلـــةٌ ∴ أوْمَـــت بأنـــك عنـــدي خـــيرُ أعيـــادي

تـاقـــت إليـــك ومـــا اشـــتاقت إلى مـــدد ∴ غـــير القبـــول وهـــذا خـــير إمـــدادي

جلَّـت عـــن الوصـــف حتـــى قـــال واصـــفها ∴ هـــذي عروســـك فاقـــت شمســـه الـــراد

راقـــت فـــلا عيـــب فيهـــا غـــير رقتهـــا ∴ حتـــى غـــدت في الـــورى يحـــدو بهـــا الحـــادي

جـــاءت إليـــك بوجـــه الـــدل معجبـــة ∴ أبياتهـــا قـــد خلـــت عـــن عيـــب تنقـــاد

أثنـــت عليـــك وقالـــت قبـــل مـــا نطقـــت ∴ هـــبني المســـامع في ترديـــد إنشـــادي

فحيازة المجد الموروث من قبل الآباء والأجداد وبلوغ المرتبة العالية التـــي تكيد الحساد هذا ما يبغيه الشاعر لممدوحه، ثم راح يستدر عطفـــه بهـــذه الكلمـــة "مولاي" ويغدق عليه صفة الكرم والجود والسخاء ليس على الشاعر فحسب وإنمـــا على جميع الخلق، ثم مدحه ببعض الشمائل المعنوية كصيانة عرضه وحسبه ونسبه من كل ما يشين وطهارة قلبه وصفاء صدره، إلى غير ذلك من الشمائل التي تجعله لا يفتر عن مديحه والثناء عليه سواء أكان قريبا منه أو بعيدًا عنه ثم ختم قصـــيدته

بتكرار تهنئته العيدية بهذه القصيدة التي جلت عن الوصف حتى قال في وصفها هذي عروس تتبختر بدلها وعجبها كما أن رقة ألفاظها وسمو معانيها يستعين بها الحادي لكي يترنم بها إنشادًا وذلك لما اشتملت عليه من سمات المديح والثناء على الممدوح وهذا ما جعلها تنطق وتقول: هبني المسامع في ترديد إنشادي.

ومن خلال ما اشتملت عليه هذه القصيدة من ألفاظ ومعان تبدو لنا مظاهر التقليد متمثلة فيما خلعه الشاعر على ممدوحه من شمائل كالمجد والعزة وبلوغ المرتبة العالية والقوة والشجاعة والجود والكرم والسخاء وصيانة العرض وطهارة القلب وصفاء الصدر وغير ذلك من الصفات التي استوحاها ممن سبقه من الشعراء، ومع ذلك فقد تبدو لنا مبالغته أحيانًا في قوله: دنت الورى كرمًا، حتى إنه شبه كرمه وجوده بالبحر تارة وبمياه الأمطار الغزيرة تارة أخرى.

كما يبدو لنا استدرار عطفه بهذه الكلمة " مولاي " وكذلك قوله: لا أسلوكموا أبدًا ، أنتم القصد – أوثقت نفسي بحبل، إلى غير ذلك من الألفاظ والمعاني التي تكشف لنا عن شدة احتياجه وعونه للممدوح وأخيه حينذاك حتى في تشبيه الممدوح بالأسد لم يكن القصد منه الشجاعة فحسب وإنما قصد به هيبة الممدوح، هذه الهيبة أمدت المهموم بالأمن وصانته عن سطوة الأعداء وأعانه الشاعر على الاسترسال في المديح، وكان هناك من كان يترصد بالشاعر لكي يحول بينه وبين ممدوحه ولكن مكانته ونفوذه وهيبته أمدته بالأمن والأمان وجعلته تصوغ عقود مديحه ويفوز بالقرب والود من قبل الممدوح كما خلع على قصيدته صفات الأدميين وجعلها كعروس تتيه دلاً وإعجابًا بجمالها ليس هذا فحسب وإنما جعلها تنطق وتخاطب الشاعر بعبارات الثناء على الممدوح وتطلب من الشاعر أن يهب لها المسامع أثناء ترديدها وإنشادها.

ب – الرسائل:

تعد الرسائل لون من ألوان الشعر الاجتماعي وفي ديوان الشيخ علي يوسف المؤيد ثلاث رسائل أرسلها إلى بعض الأصدقاء ومنها رسالة أرسلها إلى بعض

أدباء دمشق ورسالة أرسلها غلى بعض الأحبة بدمشق بدأها بقوله [١]:

خبـــأت النـــار في مـــاء الخـــدود ∴ وروَّعـــت المواضـــي بالقـــدود [٢]

وأرســـلت اللـــواحظ فاتكـــاتٍ ∴ ترينـــا كيـــف تفعـــل مـــن بعيـــد

وســـاطت الســـهاد مـــع جفـــون ∴ يطاردهـــا مـــراودة الهجـــود

وأســـلمت الحشـــا نـــيران وجـــد ∴ تلظَّـــت وهـــي مـــن ذات الوقـــود

بدأ رسالته بهذا الغزل الذي يكشف لنا عن محاسن المرسل إليه وذلك من خلال ألفاظه ومعانيه التي عبرت عن حمرة الخدود وليونة القدود وما تفعله سهام النظرات من فتك وسهد وأرق وما يفعله الشوق في الحشا من لظى ولهيب، ثم يسأل في الأبيات التالية بقوله [٣]:

فهـــل يـــا جيرتـــي في الـــدهر عـــودٌ ∴ إذا مـــا قلـــت للأيـــام عـــودي [٤]

أويقـــات مضـــت في صـــفو أُنـــس ∴ وســـاعات تقضـــت في ســـعود

نهبـــت بهـــا المســـرة في صـــفاء ∴ وفـــزتُ بهـــا علـــى رغـــم الحســـود

تقلـــص ظلـــها عـــني ســـريعًا ∴ وأصـــمى مهجـــتي حـــرُّ الصُّـــدود

وصـــرت أخيـــلُ الرؤيـــا خيـــالاً ∴ وأنـــي لـــي مـــن الظـــبي الشـــرودِ

وخـــامرني الضـــنى فقـــواي ممـــا ∴ دهـــتني مثـــل حظـــي في قُعـــود

---

(١) ديوانه ص ١٩ .

(٢) خبأه: ستره وحفظه، روَّعه: أفزعه، القد: القامة أو القوام، فاتكات: مهلكات، السهد: عدم النـوم، راود الشيء: طلبه، الحشا: البطن وما وعى، الوجد: الحب أو الحزن.

(٣) ديوانه ص ١٩ .

(٤) تقلص: زال، أصمى الصيد: أصابه فوقع بين يديه، الضنى: اشتد بـه المـرض، شـرد: نفـر واستعصى، أرسف: الرسف المشي المقيد.

فـــلا عجـــب علـــيَّ ولا مـــلامٌ ∴ إذا مـــا صـــرت أرســـف في قيـــودي

تمـــزق قلـــبيَ الـــذكرى فعطفًـــا ∴ فمـــا قلـــبي تكـــوّن مـــن حديـــد

يسأل جيرانه والمقربين إليه هل تعود أيام الأنس والمسرة والصفاء مرة أخرى، لقد زال ظل هذه الأيام سريعًا وأصاب قلبي نيران الصد والهجر والفراق حتى صرت أرى الرؤيا خيالاً ولازمني المرض حتى نحل جسمي ومزقت الذكريات قلبي، ثم يرجو عدم لومه على ما ألمّ به فسوف يظل يرسف في قيود من سيظل يمزق قلبه بذكراه ثم يناشد أحبته بقوله:

عِـــدوني يـــا أحبـــابي بوعـــدٍ ∴ يُعلِّلـــني ولـــو كـــذَبَتْ وعُـــودي [1]

وقفـــتُ علـــى محبـــتكم فـــؤادي ∴ وســـقمي والمـــدامع مـــن شـــهودي

تُصـــرفه الصـــبابة حيـــثُ شـــاءتْ ∴ تصـــاريف المالِـــك بالعبيـــد

فـــلا والله لا أســـلو هـــواكم ∴ ولـــو قطعتمـــوا مـــني وريـــدي

ألا يـــا نســـمةً خطـــرَتْ وهبَّـــتْ ∴ مـــن الشـــام هـــل تعـــودي

أحملـــك العهـــود إلى خليـــل ∴ بـــاني الـــدهر أحفظـــه عهـــودي

عســـى تـــرد الرســـائل لـــي فتطفـــي ∴ زفـــيرات الفـــؤاد مـــن الـــورود

فآمـــالي ومـــأمولي وقصـــدي ∴ يمُـــنّ علـــى دهـــري بالســـعود

وألـــثم كـــف آمـــالي وأثـــني ∴ علـــى دهـــر تفضـــل بالبعيـــد

وأخلـــع للزمـــان عـــذار لهـــوي ∴ وأطـــرب جـــاذلاً بوفـــود عيـــدي

يناشد أحبته أن يعدوه بوعد يشغله ويلهيه عما ألمَّ به من سقم وسهد وغير

(١) عل بالشيء: تشاغل به، الصبابة: العشق، عذار الهوى: يقال خلع فلان عذاره: انهمك في الغي ولم يستح منه.

ذلك من آلام العشق الذي تملكه وصار يفعل به كما يفعل المالك بعبده، وعلى الرغم من كل هذا فهو لا يسلو من أحبه وكان سببًا في هلاكه بقطع وريده ثم راح يخاطب نسمة الشام ويحملها رسالة من أحبه أنه ما زال حافظًا للعهود متمنيًا الرد بما يطفئ لهيب شوقه، وهذا كل ما يتمناه ويأمله من محبوبه.

وفي هذه الرسالة التي جاءت معبرة عن شدة شوقه ولهيب صبابته بمن أسعدته بقربها واكتوى بنار بُعدها وفراقها ومن خلال ألفاظها ومعانيها يبدو لنا مظاهر تقليده كحمرة الخدود وجمال القدود وسهام اللواحظ وآثار العشق كالسهد والأرق ونيران الوجد والتي جعلته يقتبس من القرآن الكريم بأنها من " ذات الوقود".

وفي موضع آخر من رسائله يكتب إلى بعض أصدقائه رسالة يعبر فيها عن مشاعره وأحاسيسه إثر بعدهم وفراقهم فيقول [1]:

هل بعد وَقْد لواعج الأشواق ∴ ترجى سلامة مُهْجة المشتاق [2]
لا والذي قضى عليَّ فراقهم ∴ أني أسيل دمًا مِنَ الآماق
لا تُكْفَف العبرات بل لا تنطفي الـ ∴ ـزفرات في الأحشاء بعد فراقي
أنَّى يكون لي الشفاء ولو رقى ∴ قلبي من الزفرات أعظم راقي
والبين أرَّق بالجفون بليلة ∴ ضلّ الصباح بها عن الإشراق
وحُرمتَ لذَّة الاجتماع وطالما ∴ بهمو جلوت نواظر الأحداق
يا جيرة نزحوا وقلبي بعدهم ∴ أضحى يمور كمورة الخفَّاق
لا تقطعوا حبل الوداد فإنني ∴ دومًا على عهد المودَّة باقي

---

(١) ديوانه ص ٤٨ .

(٢) اللاعج: الهوى المحرق، المهجة من كل شيء خالصة ودم القلب والروح، العَبْرة: الدمعة، زفرت النار: سمع لاتقادها صوت، جلا الأمر: كشفه، نظر الشيء: أبصره وتأمله، مار: تحرك وتدافع، الخفاق: العلم، المنطقة: ما يشعر به الوسط.

لا عشت لمحة ناظرٍ إنْ لم أصُنْ ∴ عهدي ولا شدَّت يدياي نطاقي

فلا حملن صروف دهري صابراً ∴ والحر يصبر عند كل مُطاق

أراد أن يبين لمن أرسل إليهم بهذه الرسالة ما أصابه بعد فراقعهم وبُعدهم عنه فيسأل هل بعد أن أحرق حبهم والاشتياق إليهم فؤاده ستكون هناك سلامة لروحه وجسده، ثم يجيب بلا ويعلل ذلك بما أضناه من سيلان الدماء من العيون بدلاً من الدموع وعبرات لا تكف ولهيب في الأحشاء لا ينطفئ وفراق أورثه الأرق في ليلة لا يبدو لها إشراق وقلب يضطرب كاضطراب العلم الذي تحركه الرياح، ثم يخاطبهم بألاَّ يقطعوا ما بينهم وبينه من مودة ومحبة، فهو على مودتهم وعهدهم باق وسوف يكون صابرًا على أحداث الدهر وخطوبه، وهذه سمة من سمات الأحرار.

جـ - الشكوى:

الشكوى لون من ألوان الشعر الاجتماعي تناوله بعض الشعراء للتعبير عما ألمَّ بهم من بعض الأصدقاء أو من متاعب الحياة أو غير ذلك من الأمور التي يستجيب لها هذا اللون من الشعر، ولكن الشاعر علي يوسف جاءت شكواه من الدهر وهجر الحبيب فقال [1]:

بيني وبين الدهر خَطبٌ مفجع ∴ والدهر فيه تصدع وتضعضع[2]

يرمي بحتف البعد إن رُمتَ اللقا ∴ ويسومني ذُلاً إذا أنا أضرع

وإن استنلتُ يُنيلني ألم النوى ∴ فالقلب من فعل الزمان مُفجَّعُ

ما سرَّني يومًا وتم سروره ∴ إلا وأعقبه بفعل يُفزع

فكأنه شخص يحاول تارة ∴ بصوارم ترمي العِدا وتُروِّعُ

---

(١) ديوانه ص ٥٤ .

(٢) الخطب: الأمر الشديد، تصدع: تشقق، تضعضع: خف من مرض أو حزن، الحتف: الموت، سامه: أذاقه، ضرع: ذل وخضع، استنلت: طلبت العطاء، الصوارم: السيوف، التجلد: الصبر، الحشا: البطن وما حوى، الكأس: إناء أو كوب، كاسه: كاس ظرف وفطن.

ويُـــذيقني طعـــم السِّـــقام بكأســـه ∴ ويرُدُّنـــــي عمَّالـــــه أتطلـــــعُ
ناديـــتُ هـــل مـــن منصـــف فـــادَّعَى ∴ قـــــاضٍ بـــــأني للظلامـــــة أرفـــعُ
حكَّمتـــهُ وهـــو الهـــوى فيمـــا جـــرى ∴ ورضـــيتُ مـــا يقضـــي علـــيَّ ويَقطـــعُ
فقضـــى لقلـــبي بـــالتمزق وانثنـــى ∴ فغـــدوت مـــن كـــأس الـــتظلم أجـــرعُ
لكـــــنني لمـــــا رضـــــيتُ بحكمـــــه ∴ أُبـــدي التجلـــد والحشـــا يتقطَّـــعُ
وكرَعـــتُ مـــن كـــأس الزمـــان وكأســـه ∴ وعلمـــتُ أنهمـــوا علـــيَّ تجمَّعُـــوا

من المعروف لنا أن خطوب الدهر وأحداثه شديدة ومؤلمة، ومن هنا جـاءت شكوى الشاعر من أحداث الدهر التي كانت سببًا فيما يعانيه من صـد المحبـوب وهجره.

لقد شخَّص الشاعر الدهر وجعله إنسانًا يذيقه ألوانًا من الذل وإن سره يومًـا أفزعه أيامًا فهو يثأر منه كما يثأر الفارس بعدوه ثم بدت أثار كل هذا فيما أصـابه من الصد والهجر بفعل هذا الدهر من وجع القلب وسقم الجسد وحزن النفس وغير ذلك من الآلام التي دفعته إلى الاستغاثة ولكن بدون جدوى فرا يكرع مـن كـأس الزمان ويبدي التجلد والصبر، وهنا تبدو لنا معالم التقليد في الشكوى مـن النـوى وتباريح الهوى، وكذلك حديثه عن ألم الفراق وتذوقه مرارة البعد وتمزق قلبه وحثه على التجلد والصبر وكذلك استخدامه لكلمة الصوارم وهي السيوف وترويع الأعداء إلى غير ذلك من المعاني التي طرقها كثير من الشعراء السابقين من قبله.

المبحث الثاني

ملامح التجديد في شعر الشيخ علي يوسف المؤيد

في أثناء حديثي عن مظاهر التقليد ذكرت أن الشاعر يُعد من شعراء الطور الذي عايش النهضة الأدبية في عصر الخديو إسماعيل ولكن هذه النهضة لم تكن لها أثر كبير في شعرهم وذلك لقربهم من عصر الضعف والانحطاط الذي كثرت في شعر بعض شعرائه المهارة اللفظية والمحسنات البديعية والتأريخ الشعري [١] والتشطير والإتيان بعبارات لا حياة فيها ولا عاطفة، ولذا نجد بعض الشعراء في عصر النهضة يحاولون التخلص من هذه المحسنات ويلونون شعرهم بطابع حياتهم ومشاعرهم وهذه سمة – فيما يغلب على ظني – من سمات التطور والتجديد في ذاك العصر.

أما الشيخ علي يوسف فقد بدت لي ملامح التجديد في شعره من خلال:

فن المديح:

فمن خلال مطالعتي بعض القصائد التي أثرت عن الشاعر في هذا الفن ذكرت أن من مظاهر التقليد استهلال الشاعر قصيدة المديح بالرحلة تارة وبالغزل تارة أخرى.

ثم وجدت استهلالاً آخر يعد من ملامح التجديد في شعر الشيخ علي يوسف المؤيد الذي استعل قصيدة مديحه بالعدول عن وصف الرحلة وغيرها إلى الدخول في غرض المديح، وهذه سمة من سمات التجديد في العصر العباسي الأول والتي اشتهر بها رائد التجديد في هذا العصر الحسن بن هاني الذي كانت له ثورة جامحة على الاستهلال بالوقوف على الديار وبكاء الدين والآثار والدعوة [٢] إلى الاستمتاع بالخمر التي مدحها بقوله:

---

(١) مثل الشيخ حسن قويدار والسيد علي الدرويش وغيرهما. انظر: الأدب الحديث – د/ عمر الدسوقي ص ٤٨ – طبع دار الفكر العربي.

(٢) العصر العباسي الأول د/ شوقي ضيف ص ٢٣١ – طبع دار المعارف.

عـــاج الشـــقي علـــى رســـم يســـائله ∴ وعجـــت أســـأل عـــن خمـــارة البلـــد[1]

وكذلك سار على النهج الشيخ علي يوسف في تجديده لقصيدة المديح فنجـده يستهلها بالمدح مباشرة كقوله في مدح الغازي أحمد مختار باشا [2]:

أقمـــت بنـــدَ القنَـــا في دولـــة الأسَـــلِ ∴ فكنـــتَ جنـــدًا علـــى الأيـــام والـــدُّوَلِ

وسُسْـــتَ دَهـــرَكَ حتـــى ذَلَّ مِقْـــوَدُهُ ∴ في كـــفٍّ حزمـــك لا ينفـــكُّ ذَا وَجَـــلِ

وكذلك الصنيع في مدحته للخديو توفيق عندما حل ركابه أرض الصعيد فقال:

كـــم لركـــب العزيـــز فينـــا احتفـــالُ ∴ فهـــو للعـــز والمســـرة فـــالُ[3]

موكـــبُ عهـــدنا بـــه مـــن قـــديم ∴ أنـــه الـــيمن للـــورى لا يـــزال

موكـــب للصـــعيد طـــالع سَـــعْد ∴ زانـــه الحســـن والبهـــا والكمـــال

وكذلك الحال في قصيدته التي مدح فيها صـاحب السـعادة محمـود بيـك صدقي[4]:

حويـــت المجـــد مـــن قبـــل الفصـــال ∴ وحُـــزْتَ الفضـــل بـــالهمم العـــوالي

وســـرتَ إلى العُـــلا والمجـــد طفـــلاً ∴ فصـــرت حكـــيم أنبـــاء المعـــالي

وسُـــدت النـــاس مـــن مكرُمـــة وفضـــلا ∴ وفُقْـــت علـــى الأواخـــر والأوالـــي

كما تبدو ملامح تجديده في تهنئته لصاحب السعادة عبد الرحيم بيك حمـادي لنواله الرتبة الثانية بقوله [5]:

أريـــد اليـــوم أن ارقـــى السِّـــماكا ∴ وأجتلـــبُ المجـــرة لـــي شـــباكا

لأجعلـــها حبائـــل عنـــد صـــيدي ∴ نجـــوم الزهـــر لا تبغـــي فِكاكـــا

---

(١) عاج: عطف. انظر: ديوان الحسن بن هاني ص ٢١٥ .

(٢) ديوانه ص ٧٢ .

(٣) ديوانه ص ٤ .

(٤) ديوانه ص ١٤ .

(٥) ديوانه ص ٤٣ .

وأنْ أسمـــو علـــى ظهـــر الثريـــا ∴ لأنتهـــب الكواكـــب بعـــد ذاكـــا

وأمنحهـــا لمـــن وافـــى بشـــيرًا ∴ بنبلـــك أيهـــا الســـامي مناكـــا

فالشاعر في هذه الأبيات لا يذكر هذه النجوم بقصد الوصف وإنمـا يـذكرها لمعنيان أحدهما مباشر والآخر غير مباشر، فالمعنى المباشر الـذي افصـح عنـه الشاعر في هذه الأبيات هو شدة فرحته وسعادته بهذه التهنئة التي جعلته يتمنـى أن يطير فرحًا ويمسك بهذه النجوم ويهديها لمن هنأه بحصول صاحب السمو على هذه الرتبة.

لكن هذا المعنى المباشر يخفي وراء معنى آخر غير مباشر يكمن في نفـس الشاعر ألا وهو التعبير عن مكانة صاحب السمو ومنزلته وأنه بحصوله على هـذه الرتبة بلغ مكانة وقدرًا مرموقًا وعاليًا كما تبلغ " السماكان" في المجموعة الفلكيـة، ليس هذا فحسب بل إن مكانته وعلو منزلته كعلو الزهرة وهي أحد الكواكـب فـي المجموعة الشمسية وهي ثاني كوكب بعد الشمس وهي ألمـع الكواكـب باسـتثناء الشمس والقمر وكذلك الثريا وهي مجموعة من النجوم تظهر في صـورة وشـاح أبيض.

كما تبدو لنا ملامح التجديد في مستهل قصيدته التي مدح بها صاحب السعادة عبد الرحيم حمادي بقوله:

أخِـلاي مـن أمـر الزمـان تعجبـوا ∴ فللـدهر والأيـام فينـا تقلَّـب

قضـى الله أن أهـوى هُمامًـا محببًـا ∴ لمـا أنـه سـامي الخصـال مُهـذَّب

فالاستهلال بالخل قديم تناوله بعض الشعراء القدماء لكن تناولهم كان من أجل الوقوف على الديار وبكاء الأطلال.

لكن ملامح التجديد هنا في استدعاء الخل هو مشاركة الشاعر همومه وآلامه فيما تفعله به الأيام والأزمنة التي حالت بينه وبين من يهواه من عظماء الرجال.

ومن ملامح تجديده والتي بدت لي من خلال بعض أبياته استخدامه للخيـال

الابتكاري النافذ وهو خيال يعين صاحبه على استحضار أطياف الماضي بشخصياته التاريخية [١]، يلحظ هذا في استدعائه لشخصية كسرى في ثنايا مدحه للخديو توفيق بقوله [٢]:

يبدو بعزة كسرى غير أن له ∴ خفض الجناح لدى العافي يُلاطفُه

أستغفر الله ما قد حاز عزته ∴ كسرى وكيف وديـن الحق اخنفه

كما استدعى شخصية لقمان الحكيم وشخصية بقراط أثناء مدحه لصاحب العزة محمود بيك صدقي وذلك في قوله [٣]:

بل وابدى مكامن الطب حتى ∴ قيل حاز الفُنون عنْ لقمانِ

فهو بقراط في الحقيقة لولا ∴ أنَّ بقراط دارسُ الجثمان

كما يبدو لي من ملامح تجديده تشبيهه قصيدته مدحه لهمام بيك حمادي بالعروس وذلك في قوله:

جلَّت عن الوصف حتى قال واصفها ∴ هذي عروسك فاقت شمسه الراد

راقت فلا عيب فيها غير رقتها ∴ حتى غدت في الورى يحدو بها الحادي

جاءت إليك بوجه الدل معجبة ∴ أبياتها قد خلت عن عيب تنقاد

أثنت عليك وقالت قبل ما نطقت ∴ هبني المسامع في ترديد إنشادي

فقد شبه قصيدة مدحه بالعروس التي فاق نورها وضياؤها ضياء الشمس في وقت الضحى كما خلع عليها صفات الآدميين وجعلها تقبل على الممدوح كما تقبل العروس المعجبة بجمالها فتتيه دلا وإعجابا عند إقبالها ثم جعلها تنطق بالثناء على الممدوح وتطلب أيضًا من الشاعر أن يهب لها المسامع أثناء ترديدها وإنشادها.

---

(١) الأدب الحديث – د عمر الدسوقي ص ٣٢٠ .

(٢) ديوانه ص ٦ .

(٣) ديوانه ص ١٨ .

ومن ملامح التجديد في شعره استيائه من الخيانة والغدر من قِبل بعض الأصدقاء، وقد قال بعض الأدباء أن " الحديث عن واجبات الأخوة والصداقة من الموضوعات الجديدة التي تناولها بعض الشعراء في العصر العباسي الأول، فقد تحدثوا عن اختيار الأصدقاء وسبر أخلاقهم قبل اصطفائهم وقسموهم إلى طبقات، فمنهم الإخاء الكاذب [١] ومنهم الخائن، كذا الصديق الذي تناوله الشيخ علي يوسف في هذه الخماسية فوصف لنا خيانته وغدره وحذرنا من أمثاله فقال[٢]:

ما خلتُ خِلاً صفيّ الود قد كَمُلا ∴ إلا وأصبحتُ أخشى غدره وَجَلا

فحاذر الناس كي لا تصطفي رجلا ∴ هم الذئاب التي تحت الثياب فلا

تكن إلى أحد منهم بمؤتمن

فكن بنفسك لا بالناس مشتغلاً ∴ فكم تحملت إذ خالفتهم عِلَلا

حتى سئمت وضاق الأمر بي سبلا ∴ قد كان لي كنزُ صبر فافتقرت إلى

إنفاقه في مداراتي لهم ففني

كما نلحظ ملامح تجديده في قدرته على ملائمة ختام القصيدة لمطلعها وذلك في قصيدته التي قالها في تهنئة عيد لصاحب السعادة حسن الشريعي بدأها بقوله[٣]:

قلب الزمان بما قد سرنا انشرحا ∴ ومتن إيضاح بشرانا لنا انشرحا

ثم ختمها بقوله:

ومذ أتى لك قال الصب من طرب ∴ قلب الزمان بما قد سرنا انشرحا

وكذلك في تهنئته لصاحب السعادة همام بيك حمادي مأمور مأمورية جرجا

---

(١) العصر العباسي الأول – د/ شوقي ضيف ص ١٨٢ .

(٢) ديوانه ص ٥٩ .

(٣) ديوانه ص ٣٩ .

حينذاك قال على لسان قصيدته [1]:

هـــبني المســـامع في ترديـــد إنشـــادي ∴ شـــعراً يـــرنح صـــوت المطـــرب الشـــادي

ثم جاء الختام بقوله:

أثنـــت عليـــك وقالـــت قبـــل مـــا نطقـــت ∴ هـــبني المســـامع في ترديـــد إنشـــادي

ومن خلال هذه الملامح التي استنبطها من بعض قصائده فلعلِّي أكـــون قـــد وفقت في عرض هذا البحث عرضًا علميًّا بعيد عن الزيغ والشطط، داعيًا المـــولى عز وجل أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم فإنه ولي ذلك والقادر عليه.

(١) ديوانه ص ٣١ .

الخاتمة

حمدًا لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وبعد:

فلقد أردت المشاركة ببحث في المؤتمر العلمي الدولي الأول الذي أقيم في كلية اللغة العربية بجرجا بعنوان: جرجا عبر التاريخ وجهود علمائها في خدمة العلوم الإنسانية.

وبما أن الشيخ علي يوسف المؤيد من مواليد قرية بلصفورة والتي كانت تابعة لمديرية جرجا حينذاك فقد اسهمت في إبراز جهوده الأدبية فجاء هذا البحث المتواضع بعنوان: مظاهر التقليد وملامح التجديد في شعر الشيخ علي يوسف المؤيد – ديوان نسمة السحر نموذجًا.

فعقب حديثي – في نبذة قصيرة – عن مولده ونشأته وثقافته، أردفت هذا بالحديث عن مظاهر التقليد في بعض أغراض شعره .

ففي غرض المدح سار على نهج القدماء في استهلال بعض قصائده بالحديث على الرحلة تارة وبالغزل تارة أخرى، كما استخدم بعض الألفاظ اليدوية مثل الحزن – السهل – البيداء – العقال – وكذلك في اثناء حديثه عن شمائل الممدوح فمدحه بالكرم والسخاء والجود وغير ذلك من الصفات التي تناولها بعض الشعراء القدماء، أما في غرض الغزل فقد استرفد ألفاظه ومعانيه من بعض الشعراء الذين استهوتهم معالم البيئة القديمة وما يحدث فيها ن قصص العشق وما يترتب عليه من نحول للجسد وسهد وأرق.

وفي الشعر الاجتماعي والذي تنوعت ألوانه في ديوانه فكان منه شعر التهاني والذي اتخذه وسيلة لتهنئة أصحاب السعادة والنفوذ بارتقائهم المراتب العليا، ثم استعان ببعض النجوم والكواكب وخاصة نجم السماكان الذي اتخذه بعض الشعراء رمزًا لارتقاء الممدوح وعلو شأنه.

وفي الرسائل تضمن ديوان شعره ثلاث رسائل أرسلها غلى بعض الصدقاء والأدباء بدمشق واستهل بعضها بالغزل والحديث عن أيام المسرة والسعادة والأنس التي قضاها مع هؤلاء الأصدقاء متمنيًا عودتها مرة أخرى.

وفي الشكوى جاءت شكواه من الأزمنة والدهور لما أصابه من صد وهجر وتذوقه مرارة البعد وألم الفراق وكأن الدهر بسيفه الصارم يتربص به كما يتربص

الفارس بخصمه للقضاء عليه .

أما عن ملامح تجديده:

فبما أن الشاعر يُعد من الشعراء الذين عاشوا النهضة الأدبية في عهد الخديو إسماعيل – وإن كانت هذه النهضة لم يكن لها أثر كبير – وذلك لقربهم من عصر الضعف والانحطاط لكنه استطاع – كما استطاع غيره من الشعراء – من التخلص من المحسنات البديعية والزخارف اللفظية وهذا يُعد ملمحًا من ملامح التجديد في شعره.

كما بدت لي ملامح التجديد في غرض المديح وذلك من خلال استهلال بعض قصائده بالغرض الأصلي بدون مقدمات، وهذه السمة عُدت من ملامح التجدد في العصر العباسي الأول والتي كان رائدها الحسن بن هانئ الذي ثار بثورته على من يستهلون قصائدهم بالحديث عن الديار والبكاء على الأطلال، ومن ملامح تجديده استدعاء الأخلاء – وإن كان هذا معروفاً عند القدماء ولكن استدعاءه لهم لم يكن للمشاركة على الوقوف على الديار ولكن من أجل مشاركته همومه وأحزانه وما يفعله الدهر به وحرمانه ليس من المحبوبة ولكن من لقاء من يهواهم من أصحاب السعادة وعظماء الرجال حينذاك.

ومن ملامح تجديده استحضاره أطياف الماضي وذلك من خلال حديثه عن بعض الشخصيات التاريخية كشخصية كسرى ولقمان الحكيم وبقراط وغيرهم ممن استدعاهم وهم خياله الابتكاري النافذ.

وكذلك من صوره الشعرية الابتكارية تشبيهه بعض قصائد تهنئته لبعض أصحاب السعادة بالعروس التي فاق ضياؤها ضياء الشمس وقت الضحى ليس هذا فحسب وإنما شخصها وخلع عليها صفات الآدميين وجعلها تتمايل وتتبختر عجبًا وزهوا ودلا بنفسها وتثني على الممدوح تارة وتخاطب الشاعر بأن يهب لها مسامع المتلقين ليطربوا بإنشادها تارة أخرى .

هذا وبالله التوفيق

أ.د/ حنفي محمود مصطفى